يقع حتى الآن تحت الحصر الاَّ انهُ بمكانٍ عظيم من الغرابة من ذلك رؤيا زوجة يوليوس قيصر فانها حلمت بقتل زوجها ونصحت لهُ ان يجتنب الخطر المحدق بهِ فلم يعبأ بكلامها فمات مقتولاً ورؤيا فارون اذ حلم ان ابنهُ آتيس لا يموت الاَّ قتلاً فاصابهُ سهمٌ قتلهُ اذ كان يصيد . واغرب من هذا ما وقع للموسيقي الشهير ترتيني فانهُ قصَّر في اليقظة عن تأليف احد اصواتهِ الشهيرة فادركهُ النعاس وهو في الجهد والعناء فاتاهُ ابليس في نومهِ وقال لهُ " ان سلطتني على نفسك اسمعتك ما شئت من الاصوات وفرَّجت كُربتك" فاجابهُ ترتيني الى ذلك فأخذ ابليس القيثار واسمعهُ الصوت الذي لم يقتدر عليهِ فاستيقظ ترتيني ورقم للحال ما سمع في نومهِ فاذا هو الصوت الذي يريدهُ . وقد ذكر ڤولتير انهُ حلم ليلة بعدة ابيات من الهنريات قصيدتهِ المشهورة . والامثال على ذلك كثيرة لا يسعنا المقام تعدادها . ومما يزعمهُ فلاماريون ان الفكر لا ينام تماماً وان استولى عليهِ فتور اي ان عملهُ قد يكون اذ ذاك منحصراً في ذاتهِ لا تشعر النفس بهِ ولا يرسم منهُ شيءٌ على لوح الذهن وان المرء لا يذكر من احلامهِ الاَّ النزر اليسير مما يكون قد احدث اثراً عظيماً في نفسهِ وقد لا يذكر هذا ايضاً كما انهُ لا يذكر من الافكار التي تتعاقب في ذهنهِ وهو في اليقظة الاَّ ما يكون اثرهُ باقياً في مخيلتهِ فاننا اذا ايقظنا انساناً مستغرقاً في نومهِ قام وحدثنا بامورٍ وافكارٍ قد تكون متضاربةً وقد تكون منسوقةً بما يسدّد الدليل على ان عمل الفكر يستمرّ في حالة النوم ايضاً وخالفهُ في ذلك كثيرون من نُطس الاطباء. ونحن نرى ان مثل هذه الاحوال يتعذَّر تمحيصها وتنقيتها مما يشوبها من داخلة الريبة والغموض . هذا ما وقعت عليهِ في هذا الباب من خطرات افكار العلماء وزبدة آراء الفضلاء رويتهُ لكم على مكان بعضهِ من الغرابة والله اعلم بمكنونات الامور . انتهى

رواية امينة

الفصل الرابع

ونهضتُ في الصباح بعد ليل لم اذق فيهِ طعم الكرى واخذت ألبس ثيابي وفُتح الباب ودخلت بوار وقالت اذنت لنا الخانم ان نزور بيت حميدة فالبسي حالاً وهلمي معي. قالت ذلك وخرجت مسرعةً . فسررت بهذا الخبر لانني كنت اودُّ الخروج من البيت وقبل ان لبست يشمكي دخلت وحيدة هانم وقالت بلغني انكِ ذاهبة فاتيت لاساعدك اجلسي لكي اضع لكِ اليشمك . ثم جعلت ترتب شعري ووضعت اليشمك على رأسي وشكلتهُ على حسب ذوقها

وقالت لي لا اخفي عليكِ يا امينة ان داود بن حميدة استأذن امي في ان يكتب كتابهُ عليكِ ثم لما قالت بوار امس انكِ ذاهبة اليوم الى هناك اخبرت امي ابي بذلك وسألتهُ عما اذا كان ذهابكِ الى هناك لائقاً . فقال ان لا مانع من ذهابكِ لانهُ لم يُكتَب كتابكِ حتى الآن . وستخبر بوار حميدة ان الكتاب يكتب في الاسبوع القادم

فقلتُ مضطربة " أيكتب كتابي "

فقالت نعم ولماذا خفتِ فان هذه هي مشيئة جدتك وقد اتفقت هي وحميدة على ذلك

فوضعت رأسي على يدي ولم أنه بكلمة وكنت اعلم اني لا اقدر ان اقول شيئاً لا سلباً ولا ايجاباً ولكن كانت حواسي كلها نافرة وانا اقول في نفسي كيف اقترن برجل وانا احب آخر

ولما رأت وحيدة هانم مني ذلك قالت لي بالله عليكِ لا تظهري هذا النفور امام احد لئلاَّ يظن انكِ لا تريدين ان يكتب كتابكِ عليهِ فيكثر القال والقيل . ارفعي رأسكِ ودعيني اصلح شعركِ ثانية ولا تعملي مثل المجانين ولا بدَّ لكِ من الزواج فان لم تسرَّ حميدة بمنظركِ فلا يمكن ان ترضيها بعد ذلك

ثم اوقفتني امام المرآة ونفشت شعري قليلاً ووضعت عليهِ عزيزية وردية ثم وضعت الشملك وكانت حمرة الخجل قد صبغت وجنتيَّ فلم يسعني الاَّ ان اعترف لنفسي باني كنت يومئذٍ جميلة المنظر ثم عقدت نطاقي وألبستني الفرجية ودخلت بوار حينئذٍ فتركتني وحيدة هانم معها

وخرجنا من البيت سوية وسرنا حتى بلغنا السلاملك وكان المماليك مجتمعين هناك فكلم واحد منهم بوار بالشركسية فلم تجبهُ فقال بالتركية مازحاً انسيتِ لغتك يا حبيبتي وما عدتِ تتنازلين لمخاطبة رجل مثلي . فقال لهُ آخر وكنت سمعت انهُ ابن عمها " الحق في يدها لماذا تخاطبنا ونافذ بك امام عينيها — متى تصيرين كتخدا الباشا يا عزيزة "

فقالت لهُ " حينما تصير انت صبرهُ ولكن دعنا من الهزل يا شاكر آغا وتعال معي الآن ان امكن " . فقال لا اظن ذلك ممكناً لان الباشا لم يخرج حتى الآن ولكنني سأتبعكِ بعد خروجهِ فالى اين انتِ ذاهبة . فقالت الى اجيا صوفيا وننتظرك على الجسر . فقال نعم وهوذا مركبة الباشا فاسرعا من هنا

فخرجنا وسرنا وقلت لبوار لماذا طلبتِ من هذا الرجل ان يتبعنا . فقالت وما هو الضرر من ذلك فهو ابن عمي ويحق لي ان اتكلم معهُ . فقلت ولكن انا لا يحق لي . فقالت بالله عليك ماذا تفعلين في قريتكِ ألا تكلمين الرجال

فلم اجبها بشيء ولكنني شعرت بنفسي اننا لم نحسن في الكلام معهُ . وكنت اعلم ان

الجواري يكمن هؤلاء المماليك كلما لاحت لهنَّ فرصة ويشعرنَ بقرابة تربطهنَّ بهم لانهم كلهم من بلاد واحدة . وبقينا ماشيتين الى ان بلغنا الجسر وبعد قليل وصل الينا شاكر آغا ومشى معنا وكانت بوار تكلمهُ بالشركسية وذكرا اسم نافذ بك مرارًا فانشغل بالي من جرَّاء ذلك لانني حسبتها تخبرهُ بما خامر ذهنها من حبهِ لي . ثم عادا الى التكلم بالتركية . فقال لها لا اقدر ان ارشدك الى احد ولكن قيل لي ان واحدةً كانت تسكن في آت ميدان . فقلت لها ماذا تريدين . فقالت مرادي ان امضي الى امرأة ساحرة ويقول شاكر آغا ان في آت ميدان عرَّافة ساحرة ثم التفتت اليهِ وقالت أبعيد المكان من هنا. فقال كلاَّ بل هو قريب جدًّا قرب السرعسكرية ثم قال لي ما قولكِ يا امينة هانم. فقلت كما تريد بوار. ولم اكن اريد ان نذهب الى هناك ولكن تعذَّر عليَّ ان ابدي رأيي . وظهر لي ان شاكر آغا يعرف الطريق الى العرَّافة جيدًا مع انهُ ادَّعى انهُ لا يعرفها حتى اذا بلغنا باب بيتها قرع الباب بعصاهُ ففتح لنا وأُدخلنا الى غرفة العرافة واذا هي جالسة امام منقل فلما وقع نظرها علينا نهضت وطرحت قليلاً من البخور في النار . واسرَّت بوار في اذني قائلةً اطلبي منها ان تخبرك عن بختك اولاً فانفضت رأسي وانا اقول في نفسي انها ان كانت عرَّافة افشت من سري ما لا اريد افشاءهُ وان لم تكن فلا فائدة من كلامها . فتقدمت بوار اليها وقالت لا اريد ان تبصري لي بختي ولكن ان تساعديني في امر اخبرك بهِ سرًّا . ثم مشت معها وابعدتا عنا وعادت بوار بعد قليل وجعلت تكلم شاكر آغا بالشركسية . وفهمت حينئذٍ ان بوار طلبت من العرَّافة ان تكتب لها عوذة لكي يحبها نافذ بك فاسفتُ جدًّا لانني اتيت معها ولكنني عدت ولمت نفسي على ذلك وقلت خير لهُ ان يحبها ويقترن بها لانهُ لا يغيظ احدًا اذا فعل ذلك اما انا فلا امل لي بهِ على الاطلاق ولا بدَّ لي من احتمال بعادهِ بالصبر مهما كان مرًّا . وعادت العرَّافة وبيدها ورقة ملفوفة وقالت لبوار اطمروا الورقة الحمراء تحت عتبة غرفتهِ لكي يمشي من فوقها. فذعرت بوار من ذلك وقالت لها ان تخفض صوتها فخفضتهُ واعطتها ورقة بيضاء وقالت لها عنها شيئًا لم اسمعهُ واعطتها بوار جنيهين وانصرفنا من بيتها

ولما خرجنا اعطت بوار الورقتين لشاكر آغا فاخذهما منها ومضى وسرت انا معها الى بيت حميدة فاستقبلتنا بمزيد الترحاب وانفردت بوار بحميدة وابلغتها وصية الهانم وكنت اعرف مؤدَّاها وقد سلمتُ امري للاقدار ورأيت شيئًا من السلوى في المقابلة التي قابلتني بها حميدة وزوجها فانهما قابلاني كوالدين حنونين ذكَّراني بابي وامي . وقلتُ في نفسي انهُ اذا امكنني ان اسلو نافذ بك عشت معها عيشة الرضى والسرور . ولم ارَ داود في البيت لان اباهُ اخبرهُ بمجيئنا

فبقي في السوق . ثم اشارت علينا حميدة ان نذهب الى النزهة بعد الظهر فلما خرجنا من البيت كان داود جالساً في قهوة قريبة فمشى وراءنا لحراستنا . والتفتُّ اليهِ مرارًا فرأيتهُ بشوش الوجه مثل ابيهِ لكنهُ عريض الحاجبين حتى اذا بلغنا الجسر نادي امهُ وقال لها اننا ان كنا نريد الذهاب الى ايوب سلطان فيمكنهُ ان ينزلنا في قارب من هناك فسرَّت بوار بذلك ونزلنا في قارب وقطعنا الى الجهة الاخرى من البسفور الى ايوب سلطان وكنت كلما التفت اليهِ اراهُ ناظرًا اليَّ

وسرنا بين القبور في ايوب سلطان وكان الحر شديدًا جدًّا فاخترت بقعة فيها حشيش وجلست فيها لاستريح . وكان الازدحام شديدًا في المقبرة ورأيت بين الناس كثيرين من ذوي المقامات العليا على غير المعتاد فاخذت اسلي نفسي بقراءة ما على القبور من الكتابة ثم جعلت افكر في ما آل اليهِ امري وبينما انا غائصة في بحار الافكار سمعت صوتًا مألوفًا فالتفت واذا نافذ بك ماش مع ياورٍ من ياورية السلطان وللحال خطر ببالي ما سمعتهُ البارحة عن موت ابن يوسف باشا ومجيء نافذ بك في جنازتهِ بالنيابة عن ابيهِ . وكنت اعلم اني لم اجنِ ذنبًا يجيئي الى هذا المكان ولكنني لم ارد ان نتقابل فيهِ فقمت بعد ما مرَّ والتفت الى بوار وحميدة فلم ارَهما ولكنني رأيت داود واقفًا على بضع خطوات مني متكئًا على شجرة والظاهر انهُ كان يحرسني . وكنت أعلم انهُ لا يليق بي ان آكلهُ ولكن قضت الضرورة عليَّ وقلت انهُ يعلم ذلك و يغتفرهُ فتقدمت اليهِ وقلت لهُ اين امك و بوار . فقال لا اعلم اتريدين ان نتبعهما . فقلت نعم لان نافذ بك هنا والاحسن ان لا يرانا فقال اذًا اذهب وادعوهما فهل يغتاظ اذا رآك هنا . فقلت اظنهُ لا يريد ان يرى جاريتهُ هنا

فلم يفهم كلامي جيدًا على ما ظهر لي ولكنهُ فهم اني اريد ان يدعو امهُ وبوار فدار وقال لا اعلم اين ذهبتا ولكنني امضي وافتش عنهما قال ذلك ودار ومضى وسمعت حينئذٍ واحدًا ينادي باسمي فالتفت واذا نافذ بك ورائي والغيظ في وجههِ فقال لي من هذا الرجل ولماذا انتِ هنا فقلت لهُ ان امك سمحت لنا بالذهاب الى بيت حميدة ثم اتينا الى هنا للنزهة . فقال ولكنكِ لم تجيبيني عن سؤالي الاول وهو من هذا الرجل الذي كنتِ تتكلمين معهُ

فقلت هو داود بن حميدة وقد ارسلتهُ ليفتش عن امهِ و بوار

فقال لماذا بعدتِ عنهما وكيف تمشين وحدكِ مع رجل بلغت الوقاحة منهُ ان طلب الاقتران بكِ

فلم اجبهُ لأنَّ كلامهُ اغاظني جدًّا ولم اكن انتظر ان يكلمني بمثل هذا الكلام مهما كان فضل والديهِ عليَّ كبيرًا لاني لست جارية من جواريهما

ولما رأى اني لم اجبهُ قال أتريدين ان تقولي لي انكِ تعرفين ابن البقال هذا من زمان طويل وانهُ طلب الاقتران بكِ برضاكِ

ولما سمعت منهُ هذا الكلام ورأيت ما فيهِ من الكبر والخيلاء اخذتني الانفة وقلت لهُ ان كان هو ابن بقال فانا ابنة حداد

فقال مزدريًا احسنتِ ويسرُّني انكِ عرفتِ مقامكِ ولكن ما دمت في دارنا يجب عليكِ ان تعرفي شروط اللياقة فلا يناسب سمعتكِ ان يقال انكِ كنتِ تتكلمين مع حبيبكِ وحدكما في مثل هذا المكان

فلجمتُ لساني عن اجابتهِ ووقف هو صامتًا برهةً ثم قال كنت اظنكِ افضل من هؤلاء الشركسيات فاخطأت ولذلك ارجو ان تنسي كل ما اطلعتكِ عليهِ. ثم ادار وجههُ عني وقد ألمني قولهُ ألمًا انطق لساني غصبًا عني فقلت لهُ " لا حقَّ لك يا مولاي ان تكلمني بمثل هذا الكلام اما من جهة ما تطلب مني ان أنساهُ فانا افعل حسب طلبك عن طيب نفس لان ما اطلعتني عليهِ قد ألمني اكثر مما سرَّني "

ولم التفت الى وجههِ حينما قلتُ هذا القول ولذلك لا أعلم ما كان تأثير كلامي فيهِ ووصلت حميدة وبوار حينئذٍ وجعلت حميدة تسلم عليهِ فلم يلتفت اليها بل امر بوار ان تعود الى البيت حالاً لان الشمس كادت تغيب ولا تصل الى البيت قبل العتمة . فمشينا وكانت بوار وحميدة تتأسفان لانهُ التقى بنا هناك اما انا فكنت لا أعي على شيء لفرط ما حلَّ بي من الغيظ والكرب ونزلنا في قايق حتى اذا وصلنا الى قباطاش شكرت بوار داود وافترقنا ونظر اليَّ داود نظر المستفحص ليعلم سبب اضطرابي فتجلدت على قدر طاقتي وكاد وجهي يحترق من الخجل

ومرَّ بنا نافذ بك بقايقهِ ونحن في البوغاز وكان في قائقهِ اربعة رجال يجدفون فوصل الى البيت قبلنا فلما دخلنا اوقف بوار وقال لها رأيتك في الصباح قرب السرعسكرية مع شاكر اغا ثم رأيتك في المساء مع داود في ايوب سلطان فهل تظنين انني اسكت عنكِ وانت جارية من جواري ابي

ولما قال ذلك امتقع وجه بوار وارتخت مفاصلها حتى كاد يغمى عليها فاسندت يدها على كرسي وقالت يا سيدي وكأنها قصدت ان تنكر ذهاب شاكر آغا معنا فقال لها نافذ بك اياكِ والكذب فاني سألت شاكرًا عنكِ فاخبرني لماذا ذهبتِ والى اين ذهبتِ . وانتِ تعلمين اني اذا اخبرتُ امي ضربتكِ حتى الموت . ولكن الذنب ليس كلهُ عليكِ ولذلك لا اخبر امي واياكِ والذهاب مع امينة مرة اخرى اذا ارادت ان تذهب الى العرافين ليكتبوا لها عوذ المحبة

او ان تلتقي بحبيبها في ابوب سلطان فانت تحت امري واما بي فالشكر لله انها ليست تحت امري

وحاولتُ ان اجيبهُ وانفي هذه التهمة عني ولكنهُ سار في طريقهِ قبل ان اقول شيئًا . ووقفتُ مدهوشة يكاد قلبي ينصدع من الغم والكرب ونظرتُ بوار اليَّ وكأن همومها فُرّجت عن صدرها . وعلمتُ حينئذٍ ان لا امل لي بان كرم اخلاقها يحملها على اظهار الحقيقة والمدافعة عني ولم اشأ ان الجأ اليها لاني علمتُ انها لا تلبي طلبي فصعدتُ الى غرفتي وانطرحت على الديوان وقلت في نفسي ان شاكر اغا عالم بان نافذ بك اشترى بوار لتكون زوجةً لهُ ولا بدَّ من ان يتزوَّج بها يومًا ما فمن مصلحتهِ ان يرضيها ويدافع عنها ولا بدَّ من ان يكون قد القى اللوم كلهُ عليَّ

ولما صوَّرت لنفسي الحالة التي يراني فيها نافذ بك حينئذٍ ضاقت الدنيا في عينيَّ وغلبتني العبرات فاخذت ابكي وانتحب ولكنني عدتُ وتجلَّدت وقلت لعل الله دبَّر ذلك لخيري وخيره فاخرج من هذا المكان ويمنع الشقاق الذي كان لا بدَّ منهُ بسببي

ولما نزلنا الى العشاء رأيت نصرالله باشا آتيًا ليتعشَّى في دار الحريم مع اولادهِ فتقدمت اليهِ حسب العادة وقبلت يدهُ وبتك هانم افندي ويد ادهم بك وكان لا بدَّ لي من ان اقبِّل يد نافذ بك ايضًا لانهُ معهم فلما دنوتُ منهُ لم يرد ان يعطيني يدهُ بل قال لقد رأيتك منذ خمس دقائق قال ذلك من غير ان يلتفت اليَّ فضحكتْ وحيدة هانم وقالت ان نافذ بك يكره هذه العادة وقد جاءنا من باريس بافكار جديدة مع انهُ لم يقم فيها سوى ثلاثة اشهر ولم يعد يريد ان يقبِّل احد يدهُ . وقالت ولية هانم لا ادري كيف يقيم بك افندي عشر سنوات في باريس ويعود منها تركيًّا قحًّا واما اخوهُ فتغيرهُ ثلاثة اشهر تغييرًا تامًّا

فضحك ادهم بك حتى استلقى على ظهرهِ وقال ان جلدي سميك لا يتأثر ولكن اذا اردتِ ان تمدحيني فلا يكون المدح على هذه الصورة لان التركي القح مذموم في هذه الايام . ولا انكر اني من الطراز القديم وامس سمعتُ واحدًا من المستخدمين عندي يقول ان ادهم بك تركي قح مع انهُ يتكلم الفرنسوية مثل الفرنسويين . فقال لهُ علي بك وماذا قلتَ لهُ . فقال لم اقل شيئًا لانهُ كان يودُّ ان اشرح لهُ بالفرنسوية ورقة اريد ان يكتبها بالتركية . وارى المستخدمين يطيعونني ولكني لا اراهم يحبونني لانني صارم لا اوافقهم على سخافة عقولهم ولا اعذر احدًا من الذين يسكرون ويقامرون حاسبين ان الاقتداء بالاوربيين يقوم بمثل ذلك وان التمدُّن يقتضي التهتك

فقال علي بك اني اشفق عليهم لانهم يحسبون انهم سائرون في طريق التمدن وان هذا هو الاقتداء بالافرنج

وقال نصرالله باشا لقد اصاب ادهم ولا اعني بذلك انهُ يجب ان نرجع الى الوراء ونتمثل باسلافنا الذين كانوا منذ تسعين سنة ولكن لا ارى احتقار لغتنا وامتنا من التمدُّن في شيء

فقال علي بك . ثم ان لغتنا نفسها لم تبقَ على ما كانت عليهِ بل اتسعت وتهذبت ألا ترون انهُ لم يكن فيها كلمة " شَرَف " فأوجدت فيها وشاع استعمالها

فقال نافذ بك متهكماً كان معناها موجوداً ولفظها مفقوداً اما الآن فوُجد اللفظ وفقد المعنى

فالتفت اليهِ ادهم بك وقال لهُ ما شاء الله هذا تغيير جديد في نافذ والظاهر انهُ سيترك حزبهُ وينضم الى حزبنا

فقال نافذ بك كلاَّ لا اريد الانضمام الى هذا ولا الى ذاك لاني لا افهم ما هي مطالبهما وقد رأيت كثيرين من حزب تركيا الفتاة يتزلفون الى الترك القدماء ورأيت كثيرين من الترك القدماء يبعثون اولادهم الى اوربا لكي يربوا على الاخلاق الاوربية ثم يعودون عليهم باللائمة لانهم لم يبقوا مثل اسلافهم يبصقون على كل مسيحي ويحسبون الحكومة الدستورية خراباً للبلاد

فتهلَّل وجه علي بك وقال نشكر الله صار نافذ بك يبحث في السياسة . ولم اكن اعلم من اي حزب انت فهلمَّ اخبرنا ما هو رأيك في الاحوال الحاضرة

فانقض نافذ بك رأسهُ ولم يجب بشيء . وقالت وليَّة هانم ان نافذ بك غير راضٍ عن شيء منذ شهر من الزمان فلا ترسلوهُ الى الاناطول مرةً اخرى لان القصاص يقع علينا اخيراً

فالتفت نصرالله باشا اليهِ وقال اراك يا نافذ كأنك مريض فهل كان الحر شديداً في ايوب سلطان

فاجاب نعم كان شديداً جداً وبقينا هناك ثلاث ساعات ازهقت ارواحنا لان قبو المقبرة انصدع فاضطررنا ان نصلحهُ قبل الدفن فيهِ

فقالت امهُ اظنك كنت واقفاً في الشمس ويظهر لي كأنك مصاب بصداع في رأسك ياولدي

فقال لها ما بي شيء يا امي كوني مطمئنة وما هو الاَّ تعب يسير يزول بالراحة . فقالت عسى ان يكون الامر كذلك ولكن يظهر على وجهك انك مريض

ولما قام ليذهب نظرتُ اليهِ فاذا وجههُ كالتراب وحول عينيهِ دائرتان سودوان فنسيتُ كل ما بدا لي منهُ من الاساءة واخذت لكنَّ الفضة ودنوت منهُ عازمةً ان اكون البادئة في الصلح فنظر اليَّ وقال لا تتعبي نفسكِ ونادى الجارية مريم وقال لها خذي اللكن

منها . فاعطيتها اياهُ وسرت الى الشباك لاخفي ما جال في عينيَّ من الدموع وانا اقول في نفسي ما عاد يحسبني اهلاً لشيء ولا لخدمتهِ

وشغلنا في اليوم التالي بالحزم والرزم وخرجت في العشيَّة الى الحديقة فرأيت فيها ادهم بك ونافذ بك وكان نافذ بك قد اخذ يوسف ابن اخيهِ ووضعهُ على شجرة وهو طفل رضيع ووقفت امهُ ولية هانم امامهُ تتوسل اليهِ ان ينزلهُ لئلاَّ يقع . ولما وصلتُ دار والتفتَ اليَّ فبان لي كانهُ مريض فانهُ كان غائر العينين احمر الوجنتين مقطب الجبين ولما وقعت عينهُ على عيني حوَّل نظرهُ عني مغتاظاً وقال لامرأة اخيهِ سأترك الولد حيث هو لانهُ يجب ان يتعلم ان يبقى وحدهُ . فقالت ليس على الشجرة بالله عليك انزلهُ والاَّ وقع خذيهِ منهُ يا امينة فانهُ يسمع منكِ

فوقفتُ حيرى لا ادري ما افعل لكن نافذ بك لم يتركني في حيرتي بل انزل الولد حالاً ووضعهُ على الارض وجلس بجانبهِ وقال لامهِ اطمئني عليهِ ولا ادري ما يريبكِ مني كأن لي ثاراً عليهِ حتى تجنّي اذا مسكتهُ خمس دقائق

فقالت ما حيلتي وانت تنسى ان يديهِ ورجليهِ ليست من حديد ولا اريد الاَّ ان تتزوج لأرى كيف تعامل اولادك

فقال دبري لي العروس وانا اتزوَّج اكراماً لخاطركِ

فقالت ما لنا وللهزل لماذا لا تقول لامك لتدبر لك عروساً فقد حان الوقت

فقال قولي لها عن لساني ولكني اخاف انها لا تأخذ على نفسها هذا الامر الشاق . وقد كتبتُ مرةً قائمة الاوصاف التي اتطلبها في زوجتي واطلعت وحيدة عليها

فقالت وحيدة لم تطلعني انا لان ليس لي الشرف ان اؤتمن على اسرارك ولكني اخلتك اطلعت امينة عليها

وخفت ان تكون عنت شيئاً بهذا الكلام فنظرتُ اليها والما لم ارَ منها اقل اشارة نظرتُ اليهِ وكان مستلقياً على الارض ويداهُ تحت رأسهِ والطفل جالس بجانبهِ يلعب بساعتهِ والظاهر ان كلام اختهِ جعلهُ يظن ما ظننتُ انا فنظر اليها مستفسراً ثم قال لا فرق عندي في من اطَّلع عليها اولاً وانا مستعدٌّ ان اتلوها عليكِ الآن اذا شئتِ . فقالت افعل اكراماً لخاطري فقال يجب اولاً ان تكون جميلة جميلة مثل — والتفت الى مَن حولهُ ليرى بمن يشبهها ولكنهُ لم يلتفت اليَّ ثم قال مثل ولية لاني لا ارى لماذا تكون امرأة اخي اجمل من امرأتي

فضحكت وحيدة وقالت اشكري صبرك ياولية اما انا فلا أُعدُّ بين الجميلات . مسكين بك افندي فان ذوقهُ لا يعتدُّ بهِ

فقال كلاَّ ولو كنتُ مكانهُ ما كنتُ أُقدم على الاقتران ببنت نصر الله باشا ولاسيما بعد ان رأى ما رأى من اغا بك ومني

فقالت لهُ لماذا وما هو عيبك

فقال ألا ترين ما بي من العناد فلا بدَّ من ان يكون فيكِ بعض ما فيَّ واذا كنتُ على ما اقول فلا يحسن ان اقترن بامرأة عنيدة بل لا بدَّ من ان تكون امرأتي مثل المرأة التي يحكى عنها في القصص انها تنتظر زوجها في الباب والخبز والماء في يدها

فقالت ولية والعصا في اليد الاخرى لكي يأكل ويشرب ثم يضرب فان كان الامر كذلك يا حبيبي فلا عجب اذا كانت امك تستعفي من تدبير الزوجة لك وارجو ان تعفيني من القيام مقامها

فقال احسنتِ وهذا يريحني منكِ ومنها . وانتَ يا ابني الله يعطيك العافية

وكان الطفل قد اخذ يمرجح الساعة بسلسلتها ثم ضرب بها ساق الشجرة

فصرخت ولية هائم ماذا فعل ماذا فعل هل كسرها قبحهُ الله لماذا اعطيتهُ اياها

فقال هل اقدر على ابنكِ وهو ابن والديهِ نعم كسرها قولي لزوجك ان يشتري لي ساعةً بدلاً منها

واخذ الساعة من الطفل فوضع الطفل اصبعهُ في فيهِ وتهيأ للبكاء فقال لهُ كلاَّ كلاَّ خذ الساعة والف ساعة لا تسمعنا صوتك لان رأسي يكاد ينشقُّ

فالتفتت وحيدة اليَّ وقالت لي لا احد يقدر ان يسكت هذا الولد غيرك . فتقدَّمت لآخذهُ من يدهِ وقبل ان وصلت اليهِ نهض على قدميهِ ودنا من اخيهِ واعطاهُ الطفل قائلاً انت اقدر من غيرك على تسكيت الناس . فاخذهُ ادهم بك منهُ واعطاهُ لزوجتهِ وقال لها لا تسلميهِ اياها اذا اردتِ ان يبقى سالمًا ونشكر الله لان نافذًا يمل من لعبهِ ويتركها سريعًا فقال نافذ بك نعم ولكنهُ لا يكسر قلوبها ولا ارجلها . فالتفت ادهم بك اليَّ ولم يقلْ شيئًا ثم جلس بجانب امهِ وقال لها ايمكننا ان نذهب غدًا . فقالت "نعم ولا بدَّ من الذهاب غدًا فان نافذًا مريض ولو انكر ذلك والتغيير يفيدهُ" . والظاهر ان نافذ بك لم يستطع الوقوف فجلس حالاً ولكنهُ قال لامهِ لست مريضًا كما تظنين نعم اني اشعر بشيء من الصداع ولكنني غير مريض اما اذا اردتِ انتِ وابي ان تصرَّا على كوني مريضًا فلكما ذلك

فقالت نعم وقد لحظ ابوك منك ذلك البارحة وقال انك ستمرض . فقال اشكر فضلهُ وعسى ان يبقى ينظر اليَّ هذا النظر فلا يعاملني كما عاملني اخيرًا

فقالت لهُ ولية لقد ذكَّرتني الآن فقل لنا ماذا قلت لهُ

فقال لم اقل شيئًا بل وقفت امامهُ مصابًا بالخرس لاني أحكمُ من ان اتجاسر على مجاوبتهِ فقالت اذًا ماذا قال لك هو . فقال قال لي اني مجنون فلم يفدني شيئًا جديدًا لاني علمت ذلك من نفسي والآن ما لنا ولهذا الحديث هلمَّ الى السلاملك اغابك فقد حان وقت العشاء ولما سارا التفتت وحيدة هانم اليَّ وقالت لي ماذا جرى لهُ يا امينة . فقلت لها ما حضرني من الجواب بصوت منخفض فاكتفت بهِ ولم تعد تسألني ومن ثم لم يعد نافذ بك يكلمني ولا يلتفت اليَّ

الفصل الخامس

في اليوم التالي بعد وصولنا الى المصيف اضطرَّ نافذ بك ان يسلِّم بانهُ مريض واشتدَّت الحمى عليهِ واستُدعي الطبيب فقال ان الحمي دماغية ورجح ان سببها وقوفهُ في الشمس زمانًا طويلاً في ايوب سلطان . فانقلب السرور الى غم واضطرت هانم افندي ووحيدة هانم وولية هانم ان يلازمنَ غرفتهُ نهارًا وليلاً . وكأن هانم افندي آلت على نفسها ان تنقذ ابنها من هذا المرض ولو فدتهُ بنفسها فجلست امام سريرهِ لا تطرف لها عين ولا تنزل لها دمعة وزاد اكرامي لها لما رأيتها ساهرة على ابنها وبيتها معًا تدير العبيد والخدم كانهنَّ ساعةً في يدها . وكاد قلبي ينصدع حزنًا وغمًّا ولكني لم اكن لا عبأ بما حلَّ بي لان قيامي على جدتي وهي مريضة علمني تمريض المرضى وجعل لي شيئًا من النفع . وغاب نافذ بك عن وعيهِ حالاً ولكن خدمتي لهُ كانت تريحهُ جدًّا ولما رأت هانم افندي ذلك لم تعد تسمح لي بالخروج من غرفتهِ فشكرت الله على ذلك والاَّ لجننت

مَن جلس بجانب مريض عزيز لديهِ يعدُّ الساعات والدقائق ويرى علامات الصحة والمرض والقوة والضعف تتناوب امام عينيهِ ويشعر كأن ملاك الموت يرفرف فوق عزيزهِ وهو يحاول ابعادهُ عنهُ بكلتا يديهِ يعلم الحالة التي كنت فيها والكرب الذي كنت فيهِ يومًا بعد يوم الى ان قال الطبيب انهُ جاز الخطر

ومضت ايام البحران كلها ولم يلفظ اسمي مرة ولا اشار اليَّ ولو اشارة لكن ذلك لم يؤلمني ولا كان لي وقت لافكر فيهِ

وذات ليلة صلحت حالهُ حتى اقنعنا هانم افندي بان تمضي الى غرفتها وتنام ولو ساعة من الزمان . فرضيت وتركتني بجانب سريرهِ لانها لا تركن الى الجواري . ومضت ربع ساعة وانا انظر اليهِ واسأل نفسي ترى هل كُتبت لهُ السلامة واذا بادهم بك قد دخل ولما احتفزت لاقف لهُ اشار اليَّ ان أبقى جالسة ووقف ينظر الى اخيهِ وكان قد صار جلدًا وعظمًا وكأنهُ كان مثلي قليل الامل بشفائهِ . وتحرَّك نافذ بك حينئذٍ وفتح عينيهِ ونظر اليَّ ولم ينظر الى اخيهِ

وهذه اول مرة رأيتهُ نظر اليَّ وعرفني ثم قال لي يا امينة يا حبيبتي أأنتِ هنا اظنني مضى عليَّ زمان طويل وانا مريض تعالي الى هنا تعالي ودعيني الثم وجنتيكِ . فخرت في اموري لكن ادهم بك نظر اليَّ وقال قومي اكراماً لخاطري قومي لاننا لا نستطيع ان نخالفهُ الآن والاَّ عرَّضنا حياتهُ للخطر . فقمت مكرهة وادنيت وجهي منهُ وانا اكاد اذوب خجلاً وشعرت كأن شفتيهِ منقدتان وكأني ارتكبت جريمة لا تغتفر . اما هو فتبسم اولاً ثم عبس وقال ألم تخاصم نعم ولكنني نسيت السبب نسيت السبب . كم مضى عليَّ وانا مريض اغا بك . فدنا ادهم بك منهُ وجعل يمهد وسادتهُ وقال لهُ مضت مدة طويلة توجب عليك الراحة التامة والآن يجب ان تنام ولا تتكلم . فقال امرك واغمض عينيهِ . فدار ادهم بك اليَّ وقال " نجا من الخطر ان شاء الله وانت سبب نجاتهِ يا عزيزتي ولكني ارى علامات التعب الشديد عليكِ فاين البقية " . وقد استغربت هذا التودُّد لاني لم اعتدهُ منهُ وقلت لهُ ان هانم افندي مضت لتنام . فقال سأبعث وحيدة واما انتِ فانكِ محتاجة الى النوم ايضاً . وبعد قليل دخلت وحيدة واضطرتني ان اخرج وانام فخرجت ومضيت الى غرفتي عن طيب نفس لانني شعرت بالحاجة الشديدة الى الراحة وقلت في نفسي انهُ لا يمكنني ان ابقى على خدمتهِ ما لم استرح

وحاولت النهوض في الصباح فلم استطع لاني كنت مصابة بصداع شديد واخبرتني كنجه ان الطبيب حضر وقال ان نافذ بك نجا من الخطر وانهُ صار في حالة النقه فعزمت ان ابقى في سريري ذلك اليوم لانني رأيت انهُ يسهل الاستغناء عني فبقيت النهار كلهُ وشعرت في المساء بشيء من الراحة فنهضت ومضيت الى غرفة نافذ بك فرأيتهُ نائماً وجلست بجانب هانم افندي ولم اكد اجلس حتى ضمتني الى صدرها وقبلتني فاستغربت ذلك منها وقلت في نفسي ماذا جرى حتى عطفت عليَّ الآن . وبعد دقائق قليلة فتح نافذ بك عينيهِ ونظر الى امهِ ولما رآني الى جانبها ادار وجههُ ودخلت ولية هانم حينئذٍ ووقفت فوق رأسهِ وقالت لهُ اراك احسن كثيراً فقال نعم ولكني ضعيف جداً اين اغا بك ولم يكد يتم كلامهُ حتى دخل ادهم بك ودنا منهُ وقبل ان يكلمهُ التفت اليَّ وقال اظنكِ كنتِ مريضة من كثرة التعب والتفت نافذ بك اليَّ ايضاً وقال لماذا تتعبونها . فقالت لهُ ولية هانم كانت تمرضك كل هذه المدة ولولاها ما كنت ادري ماذا كانت امك تفعل . فقالت هانم افندي نعم وليس بيننا من هي امهر منها في التمريض ومع اهتمامها الشديد بك لم يضع رشدها مثلنا . فلم يقل شيئاً بل التفت الى اخيهِ وطلب منهُ ان يقرأ لهُ فامسك ادهم بك صحيفة وجعل يقرأ فاغمض عينيهِ ثم فتحهما ونظر اليَّ كأنهُ لم يكن يسمع شيئاً . وحينئذٍ دخل نصر الله باشا وعلى بك فقال نافذ بك لاخيهِ كفاك

يا اخي فاني اشعر بالنعاس وانتِ يا امي اذهبي ونامي ولا داعي لان يبقى عندي الاَّ جارية من الجواري فقالت هانم افندي ان امينة تبقى هنا لانها استراحت النهار كلهُ . فقال بل هي محتاجة الى الراحة مثلي . فدار اليَّ نصر الله باشا بعين ملؤها الشفقة وقال لي لقد صدق نافذ نادوا بوار لتبقى هنا فاني لا ارى لماذا لا تخدم سيدها. فقال نافذ بك نعم وانا لا ارى لماذا لم تخدمني من اول الامر وليس من العدل ان تتعب امينة وكيف تخلص من عتب حميدة اذا رأتها هنا

ولما قال ذلك زال اصفرار وجهي وشعرت كأن الدم كاد يطفر منهُ ونظر ادهم بك اليَّ واحدقت الابصار كلها بي ونظرت هانم افندي الى ابنها نظر التوبيخ . فقال ما عدتُ اقول شيئاً ولكني لا اريد ان تقتل نفسها لاجلي اذهبي يا امينة الى سريركِ والاَّ مرضتِ وأضطر حينئذٍ ان امرّضكِ كما مرضتني وفاءً لمعروفكِ وانا لا استطيع ذلك مثلكِ

فخرجتُ من غرفتهِ ومضيت الى غرفتي ورميت نفسي على الديوان وقلت لقد استجاب الله دعائي فقد طلبتُ منهُ ان يحوّل قلبهُ عني فحوّلهُ فلماذا استاء من ذلك . ولكن عواطفي غلبت عقلي فاستولى اليأس عليَّ

ومضت بضعة ايام بعد ذلك لم ارَهُ فيها وحدي لانهُ كان قد نقه وصارت العائلة تجتمع في غرفتهِ غالباً وكان يجتنب الكلام معي ولحظت ذلك وليلة هانم فقالت لهُ ذات يوم "اهكذا تظهر شكرك لامينة فانكَ من حين شفيت لم تكلمها عشر كلمات كانك مغتاظ منها لانها مرّضتك". ولحسن الحظ لم يكن احد في غرفتهِ غيرنا لان هانم افندي ووحيدة هانم كانتا قد مضتا الى غرفة الاستقبال لمقابلة بعض الزوار وكان نافذ بك يقرأ في كتاب لما قالت وليلة هانم هذا القول فرفع عينيهِ وقال لقد اخطأتِ فاني غير مغتاظ منها ولا منكر فضلها عليَّ

فقالت اذاً لماذا لا تكلمها ولماذا لا تتكلمان كلاكما على جاري عادتكما كانكما صرتما غريبين فقلّ لي ماذا جرى بينكما هل تخاصمتما

وكان متكئاً على معقد امام الشباك ويداهُ تحت رأسهِ فقال لما اليكِ عن الهزل فان امينة ليست خادمة عندنا ولا لنا سلطة عليها بل هي غريبة هنا فبأي حق اخاصمها

فقالت لهُ ألا تخجل من نفسك كيف تقول انها غريبة وما معنى هذا القول . فقال لماذا اخجل ولم ارد ان اقول سوى انهُ ليس لي علاقة بها تجيز الخصام او غير الخصام

فقالت نعم يجب ان تخجل من هذا الكلام الجارح . اليكِ عنهُ يا امينة يا حبيبتي ولا تعبئي بكلامهِ واظن انهُ جن حتى يتكلم بمثل هذا الكلام بعد كل ما بذلتهِ من العناية بهِ

فلم اعد استطيع الصبر وقمتُ لاخرج وسمعتهُ وانا خارجة يقول ان كانت قد اعتلت بي

بهذا المقدار فليس ذلك مما تمدحون عليهِ لاني كنتُ اظن اني اعزُّ عليكم من ان تتركوني حتى لا يبقى من يعتني بي غيرها ولماذا لم تستأجروا لي ممرضة تمرضني فانها كانت تمرضني مثلها

فخرجت وغلقت الباب ورائي واسرعت الى الحديقة وانا اكاد اتميز غيظاً . نعم اني كنت نزيلة عليهم ومحتاجة اليهم ولكنهُ هو آخر من ظننت انهُ يمكن ان يذكرني بذلك . فضاقت الدنيا في عينيَّ وغلبتني العبرات فجعلت ابكي من كبد مقروحة واذا انا بادهم بك وعلي بك قد دخلا الحديقة واقتربا مني فقال لي ادهم بك ما جرى لكِ ما سبب هذا البكاء يا بنتي . فقلت لا شيء ونهضت وحاولت منع دموعي . فقال هل قالت امي لكِ شيئاً فقلت كلاَّ فقال اذا وحيدة فقلت كلاَّ فقال بهية فقلت كلاَّ فصمت قليلاً ثم قال اذاً نافذ

وكان في صوتهِ شيء افاض الدموع من عينيَّ غصباً عني ولكني غطيت وجهي بيديَّ فوضع يدهُ على كتفي وقال يا مسكينة اخاف ان يكون نافذ اغاظك بالكلام لاني رأيتُ انهُ تغيَّر عليكِ من يوم مضيتِ الى بيت حميدة فهل يمكنكِ ان تخبريني السبب

فقلت اني لا اعرف سبباً . ولما رأيت انهُ رثى لحالي تشجعت وقلت لهُ ألا يُسمح لي ان امضي الى بيت حميدة واقيم عندها بضعة ايام

فنظر اليَّ مستغرباً ثم قال اخاف ان يكون ذلك غير ممكن لاسباب ولكن لماذا تريدين ان تتركينا يا امينة هل رأيتِ منا شيئاً يغيظكِ . فقلت كلاَّ يا مولاي . فقال اذاً تريدين ان تبعدي عن نافذ فاخبريني هل التقيتِ بهِ ذلك اليوم . فقلتُ " نعم " . وكنت اتمنى ان تنزل عليَّ صاعقة او تثور زلزلة او زوبعة او يحدث حادث ما يمنعهُ من السؤال ويمنعني من الجواب

فقال هل قلتِ لهُ شيئاً اغاظهُ . فقلت كلاَّ . فقال لماذا اغتاظ منكِ اذاً . فلم اجبهُ . فقال لي اسمعي يا امينة انا مثل ابيكِ فلا تخفي عني شيئاً لعلي استطيع ان اساعدكِ . فهل اوضح لك ما قالهُ ابي لهُ وهو ان يقاوم التجربة من غير ان يهرب منها . فصعد الدم الى وجهي حينئذٍ لاني رأيتهُ اقترب من الموضوع الذي كنت اريد ان يبعد عنهُ وقلتُ لهُ كلاَّ يا مولاي . فقال ولكن انتِ فهمتِ ذلك فهل هذا سبب نفورهِ . فقلت كلاَّ — نعم — لا اعلم حقيقةً ولكنهُ اغتاظ لاني ذهبتِ الى ايوب سلطان

فقال مع من ذهبتِ الى هناك ولماذا

فقلت ذهبنا نتنزه هناك انا وبوار وحميدة وتبعنا داود بن حميدة كحارس لنا . فقال لا حرج عليكِ في ذلك ان كانت امي قد سمحت لكِ وقد احسن داود بذهابهِ معكما فهل ذلك غاظ نافذاً . فقلت انهُ اغتاظ لانهُ رآني اتكلم مع داود . ولما قلت ذلك شعرت كأنني اخطأت

بهذا الاقرار وانتظرت ان يعود عليّ باللوم كما عاد اخوهُ لكنهُ لم يفعل ذلك بل نظر اليّ طويلاً ثم قال لقد احسنت ولا ارى ضرراً من كلامكِ مع داود. وهذا احسن شيءٍ لكِ انا ذاهب الآن لاقنع نافذاً بان لاحقّ لهُ ليستاء منكِ

واردت ان اوقفهُ عن الذهاب ولكنهُ ذهب قبلما افقت من الدهشة التي اعترتني حالما سمعت كلامهُ . وقد قام في نفسي انهُ سيقع الخلاف بين الاخوين بسببي مرةً اخرى و بينما انا واقفة افكر في ذلك سمعت واحداً يضحك فالتفت واذا علي بك ورائي يضحك عليّ وقد نسيت انهُ هناك فقال تعالي يا امينة لا تخافي ما عاد خصامهما ممكناً لان نافذاً على ما تعلمين من الضعف الآن . فنظرت اليهِ مدهوشة ثم قال لي لا امهر من ادهم بك في اكتشاف الاسرار ولكنهُ لا يلبث ان يكتشفها حتى يسيءَ فهمها ويستنتج منها نتائج غير صحيحة

فلم اجبهُ لان قلبي لم يكن فاضياً لهذا الكلام وسرت نحو البيت ودخلت الرواق وجلستُ فيهِ افكر في امري وفي طريقة انجو بها من هذه المشاكل فلم ارَ غير الاقتران بداود وهذا كنت انفر منهُ بكليتي . ومرَّت ساعة من الزمان وانا غائصة في بحار الافكار ثم جاء بعض الزوار فسرت بهم الى غرفة الاستقبال ودخلت غرفة نافذ بك لانادي هانم افندي فرأيتهُ نائماً على المقعد وامهُ جالسة بجانبهِ فلما اخبرتها بمجيء الزوار قامت واشارت اليّ ان اجلس مكانها فجلست وانا اتمنى ان يأتي احد غيري قبلما يستيقظ لكي لا يراني بجانبهِ لاني كنت متغاظة جداً من الكلام القارص الذي اسمعني اياهُ في الصباح . ولم يسعني الاَّ ان انظر الى وجههِ وهو نائم وكان اصفر نحيفاً غائر العينين واحدى يديهِ على رأسهِ والاخرى ملقاة بجانبهِ على المقعد ووراءهُ ستارة من المخمل الازرق يظهر وجههُ عليها كأنهُ وجه ميت لا وجه حي . فلما تأملتهُ اغرورقت عيناي بالدموع ووددت ان امسك يدهِ بيدي واغسلهما بدموعي وقلت في نفسي يا الهي كم احبهُ وكم تألم بسببي . وفتح عينيهِ حينئذٍ ونظر اليّ فنهضتُ مضطربة وقلت لهُ ان امك امرتني ان ابقى هنا فان اردت ادعو لك شخصاً آخر . فلم يجبني ولم يرفع نظرهُ عني ثم تبسَّم وقال عبثاً عبثاً. اذا كان بقاؤك هنا لا يزعجك فلا تدعي احداً ولكني ارجو منكِ ان تزيحي هذه الستارة لاني اكره الظلمة . وكانت الستارة وراءهُ ولا بدَّ لي من ان انحني فوقهُ حينما ازيحها فانحنيت فنظر اليّ مليًّا وقال لي ارى انك كنت تبكين وقد قال لي ادهم بك انهُ رآكِ في الحديقة فاخبرتهِ ان كلامي ساءكِ جداً فسامحيني عن كل ما صدر مني

وخرج هذا الكلام منهُ تكلفاً كانهُ امرٌ واجب عليهِ قضاؤهُ. وازحتُ الستارة ووقفتُ امامهُ وقد علتني حمرة الخجل وقلت لهُ لا ذنب اسامحك عليهِ . وقبل ان اتم كلامي قال لي لا تخافي ان

اتعبكِ ايضاً وارى الآن انهُ لم يكن يحق لي ان استاء مما ظننتُ انهُ يحق لي ان استاء منهُ فارجو ان تنسي ما مضى وتسامحيني اذا استطعت فنعود الى صداقتنا القديمة . ولما قال ذلك اعطاني يدهُ لاصافحهُ فظننت انهُ اعطاني اياها لاقبّلها على جاري العادة ولما همستُ بذلك اخذها مني وقال اني اكره هذه العادة ولا افهم كيف تلثم المرأة يد الرجل ولكن خذي هذه المروحة وروّحي لي لان الحرَّ شديد ازهق روحي

فجلست اروّح لهُ وانا افتكر في كيف استطاع ادهم بك ان ينقل اليهِ كل هذه الاخبار وكنت انظر من الشباك الذي وراءهُ الى البيوت التي على الضفّة الاخرى اما هو فبقيت عيناهُ شاخصتين اليَّ . ثم قال تُرَى هل يريد هؤلاء الزوار ان يتعشوا هنا . فقلت في نفسي اذاً استثقل قيامي معهُ وقلت لهُ هل تريد ان ادعو ولية هانم فقال كلاَّ وقد اقامت معي الصباح كلهُ ولا يجوز ان نتعبها ايضاً . ولكن اين علي بك فقلت رأيت قائقهُ ذاهباً الآن بهِ ولكن ادهم بك هنا فهل ادعوهُ . فقال كلاَّ كلاَّ فقد سمعتُ منهُ ما يكفيني شهراً الاَّ اذا كنتِ قد شكوتِ اليهِ شكوى جديدة لم يبلغنيها حتى الآن

فنظرتُ اليهِ نظر الانفة والترفّع فضحك وقال لا بدَّ من ان اطلب السماح منكِ مرةً اخرى . لماذا لا اقدر ان اقول كلمة من غير ان اغيظكِ . هاتي ناوليني هذا الكتاب حتى اقرأ فتستريحي مني . فاعطيتهُ الكتاب وكان شغل ولية هانم هناك فاخذتهُ وجعلت اطرز فيهِ ولم تمضِ دقيقة حتى طرح الكتاب من يدهِ وقال لا استطيع ان اقرأ لان رأسي يكاد ينصدع . مَن عندنا الآن فقلتُ زوجة يوسف باشا . فقال اما حان لها ان تنتهي زيارتها فقلت اتى زوّار غيرها فقد رأيت الآن قائقاً آخر . فقال ما شاءالله الزوار بالافواج . فقلت انهنَّ اتينَ لعيادتك والسؤال عنك فقال شكراً لافضالهنَّ ولاسيما لانهنَّ لم يرينني في عمرهنَّ . فقلت بلى رأينك مراراً من الشبابيك ولو لم ترهنَّ . فقال هذه الرؤية لا تكفي لمجيئهنَّ في هذا الحر

ولم يكن في حديثنا طالي فصمتُ وصمت برهةً ثم تناول ساعتهُ وفتحها وقال متأففاً لم نزل في الساعة الرابعة وكنت اظنها الساعة السادسة تُرَى كم يوم يجب ان ابقى مطروحاً هنا مثل الكلب هل خرج الباشا . فقلت لا اظن فهل تريد ان اناديهُ لك . فقال اتظنين انهُ يليق ان اناديهُ ليأتي ويسليني . فقلت ولكن ألا تستطيع ان تسألهُ عن امر من الامور حجةً . فقال ماذا اسألهُ ونظر اليَّ باسماً فلم استطع الاَّ ان اضحك وضحك هو ايضاً وقال اني استغرب كيف يودُّ كلٌّ منا ان يتخلص من الآخر لماذا ذلك يا امينة اجلسي واسمعي ما اقولهُ لك . فجلستُ

وانا اود ان تدخل هانم افندي لاخلص من حرج هذا الموقف ولما خطر ببالي ذلك صعد الدم الى رأسي . فقال ماذا جرى لكِ الآن وبماذا انتِ تفكرين لا تخافي فاني صرت احاذر ان اقول لك كلمة مخافة ما القاهُ من التعنيف من ادهم بك . والظاهر انك جعلتهِ موضع سركِ اتوسل اليكِ ان لا تفتاظي مني الآن فتشكي امركِ اليهِ لاني احب ان اخسر كل خسارة ولا اسمع تعنيفهُ مرة اخرى

فقلت لهُ كيف تعاملني هذه المعاملة وكيف تستحلُّ ذلك أتصدّق ان ادهم بك قال لكَ كلمةً بطلبي او برضاي

فقال لماذا شكوت اليهِ امركِ اذًا وقلتِ انكِ ترغبين في الخروج من بيتنا لكي تخلصي مني لاني صرت اضطهدكِ واسيء معاملتكِ من حين رأيتك نعم داود في ايوب سلطان غيرةً منهُ

فبهتُّ من كلامهِ وكدتُ لا استطيع جوابًا لاستغرابي كيف حُرِّف كلامي واخبرًا قلتُ لهُ هل اخبرك ادهم بك اني انا قلت لهُ ذلك

فقال اتنكرين هذا القول وربما تنكرين ايضًا انكِ قلتِ لهُ انكِ تحبين داود كفى كفى يا امينة ما عدتُ الجئكِ ان تشكي اليهِ شيئًا وارجو اني ان اسأت اليكِ بعد الآن لا تشكيني الى ادهم بك بل الى الشخص الوحيد الذي اعترف لهُ بالسلطة عليَّ في هذا البيت . نعم ان نصائح الاخ لاخيهِ حسنة مقبولة ولكنها قد تفرغ في قالب تنفر منهُ النفس . واريد ان ينبهني الى نقائصي رجل خالي الغرض لا ناقة لهُ في المسألة ولا جمل حتى لا يكون حكمهُ عليَّ مشوبًا باغراضهِ الذاتية . فلو لامني ابي وقال لي اني تصرفتُ معكِ تصرُّفًا مخلاًّ بالادب لقبلت لومهُ وحسبت انهُ ابدى لي ما يعتقدهُ تمامًا سواء كان مخطئًا فيهِ او مصيبًا لاني اعلم انهُ خالي الغرض واما ادهم بك فلا

ولما سمعت منهُ هذا الكلام اسودَّت الدنيا في عينيَّ وقلت لهُ والغيظ ملء فؤادي أتظن ان ادهم بك لا يرى ما يراهُ كل احد أوَبي حاجة ان اشرح لهُ هذه الامور

فزاد غيظهُ وقال أإلى هذا الحد . لم يخطر ببالي قط اني كنتُ مكروهًا في عينيكِ قبل الشهر الاخير واظن ان غيري ايضًا كان مغشوشًا مثلي

وهنا طفح الكيل ولم اعد استطيع الكلام فغطيت وجهي بيديَّ وخنقتني العبرات فصرت ابكي كالطفل لان كل كلمة من كلامهِ جرحت قلبي كسهم مسنون . وحاولت ان املك نفسي لئلاَّ يشمت بي فلم استطع واخيرًا شعرت بيد وُضعت على يدي ورفعتها عن وجهي ففتحت عينيَّ ورأيتهُ واقفًا امامي وهو اصفر الوجه ويدهُ تكاد تحترق فقلت في نفسي لا بدَّ من ان يكون

كلام ادهم بك وكلامي قد اعادا اليهِ الحمى فصرختُ وانا اشهق ارجعْ الى مكانك بالله عليك ارجعْ الى مكانك والاَّ عاودتك الحمى وحسبتُ اني انا السبب ووقع اللوم كلهُ عليَّ. فتبسم وقال كلاَّ كلاَّ انا هو السبب وقد اخطأت اليكِ فسامحيني ولا تبكي

وحاولتُ ان اعيدهُ الى مكانهِ ونهضت لاخرج من غرفتهِ فقال اطيعك بشرط ان تبقي هنا وعاد الى المقعد وبقيتْ يدهُ ممسكةً بيدي وجلس واجلسني بجانبهِ وجعل يرفع شعري عن وجهي بيدهِ الأُخرى وكانت يداهُ ترتجفان .فقلت لهُ ستعاودك الحمى حتماً واكون انا المسببة لك في ذلك

فقال كلاَّ لا تخافي لا يمكن ان تعاودني الحمى لاني عازم ان لا امرض ايضاً ولكنني لم اظن اني ضعيف بهذا المقدار والظاهر ان الوقوف اتعبني . والآن قولي لي الحق هل قلتِ لادهم بك انكِ تحبين داود

فاجبتهُ "كلاَّ لم اقل لهُ ذلك فهل قال لك اني قلتهُ لهُ". وقد صرَّحت لهُ بذلك لان خوفي من انتكاسهِ الجأني الى التصريح بهِ مع علمي بما سيترتَّب عليهِ. فقال لم يقل لي ذلك صريحاً ولكن هذا كان معنى كلامهِ فاخبريني الآن أصحيح ما فهمتهُ منهُ

فلم اجبهُ واراد ان يعيد سؤالهُ ثم توقَّف وترك يدي من يدهِ وقال لي اجلسي امامي فقمت وجلست على الكرسي امامهُ ولم اكد اجلس حتى فُتح الباب ودخلت هانم افندي وتبعها زوجها والتفت الى نافذ بك ولما وقعت عينهُ عليهِ عبس وقال لهُ ماذا فعلت بنفسك.ونهض نافذ وقبَّل يد ابيهِ فقال لهُ ابوهُ ها قد عاودتك الحمى

واضطرب فؤادي لما قال نصرالله باشا ذلك فضحك نافذ بك وقال كل الحق على امي لانها تركتني ساعتين ولم تترك عندي الاَّ امينة وهي لا تستطيع ان تزجرني . فنظرت امهُ اليَّ وقالت لي كيف تغاضيت عنهُ يا امينة . فاجابها نصرالله باشا قائلاً ان نافذاً ليس طفلاً ولاهو جاهل مصلحة نفسهِ فاذا اراد ان يجنَّ فهذه البنت لا تستطيع منعهُ قومي يا امينة وامضي الى غرفتك لاني ارى علامات التعب على وجهك ولا بدَّ لكِ من الراحة وانت يا نافذ تم في مكانك وسارسل الآن واستدعي الطبيب . قال ذلك وخرج من الغرفة فخرجتُ وراءهُ وقد غلبني الخجل والاضطراب . ووقف في الممشى والتفت اليَّ كأنهُ يريد ان يكلمني فخفق فؤادي لاني كنت اعلم انهُ عارف بقصتي من اولها الى آخرها لكنهُ لم يفعل بل سار في طريقهِ وصعدتُ الى غرفتي وانا اسأل نفسي ماذا افعل لاخلص من هذه المشاكل والمتاعب